

## العلاقات الثقافية بين إيران وجبل عامل منذ العهد الصفوي حتى الآن

أ. د. دلال عباس

### الملخص

حين نتكلّم على العلاقات بين إيران وجبل عامل، فإننا لا نعني تلك العلاقات الطبيعيّة التي توثقت بعد الفتح الإسلاميّ بين إيران والمناطق العربيّة عامّة وبلاد الشام وجبل عامل جزء منها- خاصّة، بل نقصد تلك العلاقات الدينيّة-الثقافيّة والسياسيّة التي أدت إلى تأثر وتأثير متبادلين على الصّعد كافّة.

لذلك سنحصر الكلام في العلاقات الوثيقة التي ربطت جبل عامل بإيران في مرحلتين متباعدتين زمنياً، لكنهما متّصلتان بعري ووشائج وثيقة، تراخت في بعض المراحل لكنّها لم تنقطع أبداً. مستقرّين كتب التاريخ القديمة والحديثة ذات الصلة بالموضوع، وآثار علماء جبل عامل التي درسنا بعضها من قبل :

**في المرحلة الأولى:** كان التأثير من جبل عامل باتجاه إيران في زمن الصّفويين، وقبيل عهدهم بقليل.

**في المرحلة الثانية:** كان التأثير من إيران باتجاه جبل عامل قبيل الثورة الإسلاميّة الإيرانيّة وبعد نجاحها.

**في المرحلة الأولى:** ساهم علماء جبل عامل في المرحلة التأسيسية للدولة الصفويّة- في البناء الفكريّ لهذه الدولة التي أعلنت التشيع مذهباً رسمياً لها وكادت تتّجه إلى الغلوّ فيه، لو لم يلجم العلماء العامليون اندفاع الساسة الصفويين، ويصحّحوا المسار الفكريّ للدولة بحماية المذهب الاثني عشريّ من تحريفات غلاة الصوفيّة، ويمتدّ تأثيرهم من الدين إلى السياسة والثقافة.

**في المرحلة الثانية:** قام العلماء الإيرانيون قبيل نجاح الثورة الإسلاميّة وبعدها بدورٍ مهمّ في تحريك الجمود المخيم على الأفكار في جبل عامل. هذا الدور بدأ منذ ستينات القرن العشرين ووصل إلى أوجه بعد انتصار الثورة الإيرانيّة، وقد امتدّ هذا التأثير من الدين إلى السياسة والثقافة أيضاً. مهما يكن من أمر، لا انقطاع في صلب العلاقة بين المرحلتين، فالمرحلة الأولى هي التي أسّست للمرحلة الثانية.

**سياسياً:** لأنّ نظريّة "النيابة العامّة للفقهاء" التي طورها عليّ بن عبد العال الكرّكي العمليّ وطبقها عملياً في المرحلة الأولى، ظلّت تتفاعل سلّبا وإيجاباً طيلة القرون التالية، وتتطور ببطء إلى أن وصلت على يد الإمام الحسيني إلى نظريّة ولاية الفقيه التي على

أساسها قامت الثورة وقامت الجمهوريّة الإسلاميّة، ونجاح الثورة الإسلاميّة كان الدافع والمحفّز لنهوض المقاومة الإسلاميّة في جنوب لبنان. ومن نافل القول إنّ هذه المقاومة التي استمدّت الدعمَ الفكريّ والسياسيّ من الثورة الإسلاميّة الإيرانيّة كانت نقطة الضوء الوحيدة في هذه العنمة التي تخيم على الأقطار العربيّة والإسلاميّة.

**فكريّاً:** ينتسب العلماء الإيرانيّون الذين أثروا في جبل عامل جزئيّاً إلى جذور عربيّة من طريق الأب أو الأم، أو هم تتلمذوا على يد هؤلاء من طريق علاقتهم بحوزة النجف الأشرف، أو أنّهم ينتسبون إلى عائلات كانت قد هاجرت من جبل عامل في المرحلة العثمانيّة كالسيدّ موسى الصدر على سبيل المثال لا الحصر، والسيدّ الداماد من طريق الأم، وهم ينتمون فكريّاً إلى التيار الاجتهاديّ الذي أسّس له الشهيدان الأوّل والثاني وكان يمثّله في إيران تلاميذهما، ثمّ أبناء هؤلاء وتلاميذهم إلى آخر السلسلة .. من "المحقّق الكرّكي" و "حسين بن عبد الصمد إلى "الشيخ البهائي" و "السيدّ الداماد" و "المثلاً صدر" و "محسن فيض الكاشاني"... وصولاً إلى "آية الله خادمي" و "الإمام الخميني" و "السيدّ موسى الصدر"... ثمّ تعرّف العامليّون كغيرهم من العرب بل أكثر من غيرهم كتابات علماء الثورة الإسلاميّة: الخمينيّ والشهيد مطهري وعلي شريعتي وغيرهم. وهذا هو التأثير الفكريّ القادم هذه المرّة من إيران باتجاه لبنان موزّعاً نتائجها وثماره على الصّعد كافّة. والملحوظ أن يكون أوّل كُتاب القصة ذوي المكانة في إيران، في القرن العشرين، هو الكاتب "محمد علي جمال زاده" الإيرانيّ من أصل لبنانيّ...

**الكلمات المفتاحيّة:** العلاقات الثقافيّة، إيران، جبل عامل، الهجرة العامليّة، النيابة العامّة للفقهاء، العلماء العامليّون، الدولة الصفويّة، الشهيد الثاني، الشيخ البهائي، آل الصدر، جمال زادة.

### المرحلة الأولى: دور العلماء العامليّين في بناء الدولة الصفويّة

بما أنّ جميع أسماء العامليّين المهاجرين إلى إيران وتوثيقها ليس هدفاً من أهداف هذا البحث، لا سيّما أنّ عددهم كان كبيراً جدّاً، كما يتّضح من مراجعة: "أمل الأمل" للحرّ العامليّ بجزأيه و"روضات الجنّات" للخوانساريّ و"مستدرك الوسائل" و"عالم آراي عباسي" لإسكندر المنشي و"بحار الأنوار" للمجلسي و"أعيان الشيعة" للسيدّ محسن الأمين... لذلك سنركّز البحث على أولئك الذين كان تأثيرهم مميّزاً في مسيرة الدولة الصفويّة، والذين امتدّ تأثيرهم في إيران حتى يومنا هذا.

كان تأثير العلماء العامليّين المهاجرين إلى إيران عميقاً جدّاً، فقد عدّلوا خطّ الصفويّة الدرويشي بسيرة فقهية عميقة، ذلك أنّ الملوك الصفويّين -عدا طهماسب- مع كلّ المفاصد

الأخلاقية التي كانوا عليها وكانت مخفية عن عامة الناس، نسب إليهم أتباعهم، كعادة الصوفية بالنسبة إلى المرشد الأول أفعالاً وخوارق لا تحصى<sup>1</sup>، وكما يقول الشيخ مرتضى مطهري: "إن لعلماء جبل عامل، دوراً مهماً في الخطوط العامة للدولة الصوفية الشيعية، فالصوفيون كانوا صوفية، ولو لم يتعدّل خطّ الصوفية الدرويشي بسيرة فقهية عميقة على يد علماء جبل عامل، ولو لم تتأسس على أيديهم حوزة فقهية عميقة في إيران، لكان خطّ الصوفية الصوفي الدرويشي ينتهي إلى ما انتهى إليه العلويون في الشام أو تركيا وكان لهذا العامل أثر كبير في صيانة السيرة العامة للدولة والأمة الإيرانية من تحريفات الصوفية تلك، وفي تعديل نفس العرفان والتصوّف الشيعيين... ثم يضيف أن لفقاء جبل عامل بتأسيسهم الحوزة الفقهية في إصفهان حقاً كبيراً في ذمة الأمة الإيرانية"<sup>2</sup>.

### الصفويون وأسباب هجرة العاملين إلى إيران:

يعود نسب الصفويين إلى الشيخ الصوفي "إسحق صفي الدين الأردبيلي" (وُلد في العام 674هـ-1252م)، الذي كان صاحب طريقة خاصة به، وقد اشتهر بزهده وتقواه وتعلّق مريديه به، وبأبنائه وأحفاده من بعده، وأوّل من دعا إلى التشييع من هذه السلسلة "خواجة علي" (المتوفى 830هـ-1426م)، ولما توفّي تولّى مشيخة الطريقة بعده ابنه "شيخ شاه"، ثم حفيده "السلطان جُنيد"، ثم ابن جُنيد "الشيخ حيدر" والد الشاه إسماعيل الذي سار على خطى أبيه في تجميع الجيوش، وكان جنوده في غالبيتهم من التركمان الشيعة، وقد ألبسهم الشيخ حيدر قبعة حمراء، ذات تاج واثنيتي عشرة درزة على عدد الأئمة سمّوا بسببها "القرلباش" أي الرؤوس الحمراء بالتركية، وهؤلاء الجنود هم الذين أصبحوا في ما بعد الصنو والند للجنود الإنكشارية في الجيش العثماني<sup>3</sup>، إلا أنّ الشيخ حيدر قُتل كما قُتل أبوه من قبل، وأخفى أنصاره ابنه في لاهيجان شمالي إيران، إلى أن تمكّن ابنه إسماعيل وهو الشاب الجريء الطموح الذي لم يتعدّ الخامسة عشرة من عمره، والصوفي المحاط برفاق من الصوفيّين القرلباش - كانوا يعدّونه كأبيه وأجداده من قبله "المرشد الكامل" - أن يعلن في جامع تبريز، بعد دخوله منتصراً (907هـ/1501م) وجلوسه على سرير السلطنة أنّ مذهب إيران الوحيد والإجباري هو المذهب الشيعي، وأن يذكر في الأذان والإقامة "أشهد أنّ علياً وليّ الله، وحيّ على خير العمل"، الأمر دفع العلماء المعتدلين من الشيعة في تبريز إلى لوم الشاه على فرض المذهب بالقوة، وعدّوا هذا القرار متهوراً لأنّ إيران من الناحية الرسمية كانت في غالبيتها من السنة، كما حدّروه من فتنة يكون من الصعب تداركها بعد أن يفوت الأوان، لكنّ الشاه كان مصرّاً على موقفه<sup>4</sup>. قبل سلطنة الشاه إسماعيل كان الشيعة متفرّقين في نواحي إيران كقم وكاشان والرّي ومازندران وسبزووار، من هنا تكمن أهمية الدور الذي

1. تشكيل شاهنشاهی صفويه، ص 64؛ زندگانی شاه عباس اول، ج 2، ص 353.

2. الإسلام وإيران، ص 253.

3. انظر: دلال عباس: الشيخ البهائي أديباً وفقهياً وعالمًا، ص 31-32؛ تشكيل شاهنشاهی صفويه، ص 64 و 68 و 74؛ زندگانی شاه عباس اول، ج 1، ص 195.

4. تشكيل شاهنشاهی صفويه، ص 190، زندگانی شاه عباس اول، ج 1، ص 170 و 171.

اضطلع الشاه إسماعيل بأن يقوم به من الارتفاع ببلاد إيران إلى دولة واحدة على أساس المذهب، إلا أن التعصّب المذهبي أدى إلى ردود فعل متباينة، فقد أدى إلى صراع يحتدم كثيرًا ويخفت في أحيان قليلة بين إيران وجيرانها الأتراك العثمانيين مما أثر سلبيًا على الاثني عشرية في الحجاز والعراق وبلاد الشام، الذين تعرّضوا للاضطهاد في المناطق الخاضعة للحكم العثماني، بعد أن تسلّم السلطان سليم (918هـ - 1512م/ وفاة 946هـ - 1520م) الحكم في الدولة العثمانية وأجبر السلطان بايزيد الثاني على التنازل عن العرش، وقتل مخالفه وإخوته وأولادهم، ووجد في انتصارات الشاه إسماعيل سدًا أمام طموحه إلى أن يكون خليفة المسلمين، فصمّم على محاربتهم، وأمر بقتل كل من كان معروفًا بالتشيع في المناطق الخاضعة للدولة العثمانية وأهل جبل عامل من بينهم<sup>5</sup>.

هذا الصراع العثماني الصفوي كان من أهم الأسباب التي أدت إلى هجرة العاملين إلى إيران، فضلًا عن حاجة الدولة الصفوية إلى علماء ينشرون المذهب ويعلمون مبادئه. لا نعرف أسماء العاملين الذين هاجروا إلى إيران قبل العصر الصفوي، مع أن بعض المؤرخين تحدّثوا عن علاقات بين أهل جبل عامل وإيران منذ القرن السابع الهجري، عصر السلطان "أولجايتو محمد خدابنده" الذي جمع حوله عددًا من علماء الشيعة، حاولوا جهدهم نشر المذهب والردّ على المخالفين، وقيل إن من بينهم علماء من جبل عامل<sup>6</sup>. كما يذكر المؤرخون أن علاقات قامت أيضًا في القرن الثامن الهجري بين "السربداران" وبين علماء من جبل عامل، وأن أحد أمرائهم علي بن المؤيد (حكم من 1346 إلى 1381م) حاول أن يستقدم الشهيد الأول "شمس الدين أبو عبد الله محمد بن مكّي العاملي الجزيني" المتوفى في العام 786هـ/ 1384م، إلى خراسان لنشر العقيدة، لكنّ الشهيد الأول لم يستجب لنداء أمير خراسان ولم يسافر إلى إيران، ولكنّه كتب "اللمعة الدمشقية" وهو كتاب فقهي مختصر في العام 784هـ/ 1382م) ليكون مرجعًا فقهيًا لهم<sup>7</sup>، وكان "السربداران" قد أسسوا دولتهم من قبل على أساس الخط الصوفي المعادي للفقهاء، لكنّ آخر أمرائهم علي بن المؤيد هو الوحيد الذي تحوّل باتجاه الخط الفقهي الاثني عشري الممثل بالفقهاء. وبعد سقوط دولة السربداران بسنة واحدة ولدت دولة شيعية أخرى في خوزستان سنة 783 هـ واستمرت حتى العام

5 . تشكيل شاهنشاهی صفويه، ص 163 و 164 و 165؛ تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص 189؛ تاريخ فرهنك ایران، ص 230.

6 . تشكيل شاهنشاهی صفويه، ص 49؛ زندگانی شاه عباس اول، ج 1، ص 157؛ عالم آرای عباسی، ص 144.

7 . "السربداران" أمراء تولّوا الحكم بعد زوال حكم الإيلخانيين مدة نصف قرن تقريبًا من 1337 إلى 1381م. أهميتهم التاريخية أنهم حملوا لواء التشيع وحاولوا نشره قبل الصفويين، فرهنك فارسی، ج 5، ص 745.

1117هـ، وكان مؤسس هذه الدولة على جانب من التصوّف وكان على علاقة بالشيخ أحمد بن فهد الحلّي المتوفّي في العام 841هـ/1437م)<sup>8</sup>.

نصل إلى استنتاج مؤداه أنّ علماء عامليين هاجروا إلى إيران واستوطنوا فيها منذ القرن السابع الهجري، واستمرت هذه الهجرة بتشجيع من حكّام إيران في عهود مختلفة إلى أن جاء الصفويون إلى الحكم، فزاد عدد المهاجرين إلى إيران طوعاً وكرهاً لأنّ حكّام إيران بدأوا بتشجيع العلماء الشيعة على الذهاب إلى إيران، منذ عهد الشاه إسماعيل الصفوي، فهاجر عدد من العلماء إليها بتشجيع من الدولة الصفوية، وهرباً من ضغط العثمانيين، وتمتعوا بالحرية السياسيّة والدينيّة المطلقة، لا سيّما زمن الشاه طهماسب الذي كان يجلّ العلماء ويعظّمهم<sup>9</sup>، وقد أطلق يد علماء الدين في شؤون المملكة فاندفعوا إلى بناء هذه الدولة فكرياً على أساس اثني عشري<sup>10</sup>.

### دور أعلام العاملين في بناء الدولة الصفوية فكرياً:

**المحقّق الكرّكي<sup>11</sup>** الشيخ نور الدين علي بن الحسين بن عبد العالي الكرّكي المعروف "بالمحقّق الثاني" "الكرّكي" نسبةً إلى كرك نوح القرية بلاد بعلبك، والمحقّق الثاني في مقابل "المحقّق الأوّل" الحلّي "جعفر بن سعيد"، توفّي في العام 940هـ/1533م في زمن الشاه طهماسب الصفوي، رحل في أوّل أمره إلى مصر وأخذ عن علمائها بعد ما أخذ عن علماء الشام ثمّ رجع من مصر وتوجّه إلى النجف الأشرف، ثمّ رحل إلى إيران أوان تأسيس الدولة الصفوية زمن الشاه إسماعيل الصفوي، وكان التلاقي بين رجلين: عمل أحدهما يكمل عمل الآخر: الشاه الصفوي يريد تثبيت حكمه على أساس المذهب وهو بحاجة إلى فقهاء يدعمون موقفه، والمحقّق الكرّكي بحاجة إلى دولة يُطبّق فيها نظريته، التي تلغي نظرية: "الغيبية والانتظار" التي كانت قد برزت في الفقه الاثني عشري منذ أوائل القرن الثالث الهجري، حيث جمّد الفقهاء فرائض: الجهاد وإقامة الحدود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والزكاة والخمس، كما أنّهم قالوا ابتداءً من القرن السادس الهجري بعدم وجوب صلاة الجمعة في عصر الغيبة،.. وقد بدأت محاولات الاجتهاد متدرّجة منذ القرن السادس الهجري، وقال الشيخ المفيد (336-413هـ /1022م) بتفويض الأئمة للفقهاء إقامة الحدود في عصر الغيبة، وعلى الرّغم من ذلك لم يكن مؤمناً بقيام دولة إسلامية في غياب الإمام المهدي، لذلك رفض تولّي الحكم حين عرض عليه البويهيون ذلك<sup>12</sup>، وقام من بعده، المحقّق

8 . رسالة علي بن المؤيد إلى الشهيد الأوّل في أعيان الشيعة، ج 1، ص 60.

9 . زندگانی شاه عباس اول، ج 2، ص 255؛ أعيان الشيعة، ج 3، ص 81.

10 . عالم آرای عباسی، ج 1، ص 154؛ تاريخ فرهنگ ايران، ص 242 و 265؛ لؤلؤة البحرين، ص

151-152؛ روضات الجنات، ج 4، ص 362 و 363؛ ريحانة الأدب، ج 5، ص 347.

11 . ترجمته في أعيان الشيعة، ج 10، ص 45 و 208؛ روضات الجنات، ج 4، ص 362-363؛

ريحانة الأدب، ج 5، ص 347.

12 . راجع المسعودي، مروج الذهب، ج 4، ص 257.

الحلي جعفر بن سعيد (602-676هـ) فطرح النيابة العامة في مجال الزكاة، إذ أعطى الأولوية في صرفها للفقير المأمون لأنه أعلم بمواقعها<sup>13</sup>. ثم كان العلامة الحلي (647-736هـ) أول من فتح باب التقليد الذي كان يراه علماء الشيعة السابقون قبيحاً ومرفوضاً ومحرمًا حيث قال: "يجوز للعامي العمل بفتوى العالم في الأحكام الشرعية"<sup>14</sup>، وقد خطا الشهيد الأول في القرن الثالث الهجري، الرابع عشر الميلادي، خطوة جديدة في تطوير نظرية "النيابة العامة" من القضاء والحدود والزكاة إلى صلاة الجمعة، حيث قال بوجوبها انطلاقاً من نيابة الفقيه في باب القضاء، وقد عدّ الشهيد الأول في كتابه "اللمعة الدمشقية" الفقيه "نائباً عن الإمام" وأجاز له إقامة صلاة الجمعة، كما أطلق على الفقيه العادل الإمامي الجامع لصفات الفتوى لقب "نائب الغيبة" في كتابه "الخمس" من "الدروس الشرعية في فقه الإمامية"<sup>15</sup>، وكذلك فعل الشهيد الثاني وتلاميذه؛ ولكنهم جميعاً لم يفتوا بالجهد وإقامة الدولة في غيبة المعصوم<sup>16</sup>، وهكذا في حين كانت نظرية "النيابة العامة للفقهاء" تنمو ببطء، وبصورة جزئية ومحدودة على أيدي علماء الحلة ثم علماء جبل عامل، ابتداءً من القرنين السابع والثامن الهجريين، كان الواقع السياسي الشيعي يتطور بعيداً من الفكر السياسي الإمامي بدءاً من ثورة السربداران وصولاً إلى إعلان الشاه إسماعيل الصفوي المذهب الشيعي المذهب الوحيد والإجباري للدولة بناءً على دعويين: دعوى الوكالة الخاصة عن الأئمة، ودعوى رؤية الإمام علي في المنام إلى جانب ادعائه أنه من نسل الأئمة<sup>17</sup>، وهذا ما أعطاه سلطة دينية ودنيوية مطلقة، وقد استقدم علماء من النجف كان من بينهم علماء من جبل عامل والبحرين للعمل على نشر المذهب، وكان من بين الذين تعجلوا الذهاب إلى إيران المحقق الكركي الذي يؤكد المؤرخون أنه من بين الذين عارضوا فرض الشاه إسماعيل المذهب بالقوة، وقد عاد الكركي إلى النجف وكان ما رآه في إيران دافعاً له ليعكف على تطوير نظرية النيابة العامة للفقهاء عن الإمام المهدي إلى نظرية سياسية، متأثراً بقيام الدولة الصفوية التي (باتت أمراً واقعاً) وزوال ظروف التقية، وبقيت للمحقق على الرغم من عودته من إيران منزلة عظيمة لدى الشاه، الذي عين له وظائف وإدارات كثيرة ببلاد العراق، حتى قيل إنه كان يصل إليه في كل سنة سبعون ألف دينار شرعي من الشاه إسماعيل، لينفقها في تحصيل العلم ويفرّقها في جماعة الطلاب والمشتغلين<sup>18</sup>، وقد عاب عليه معاصروه ومنهم (الشيخ إبراهيم القطيفي) قبوله جوائز السلطان، لأنّ هؤلاء كانوا يرفضون الاعتراف بدولة شيعية في زمن الغيبة، ولا يؤيدون نظرية ولاية الفقهاء، ويرفضون إقامة صلاة الجمعة في زمن الغيبة... بعد وفاة

13. أعيان الشيعة، ج 5، ص 312.

14. نهاية الأحكام للعلامة الحلي، ج 2، ص 411؛ أعيان الشيعة، ص 396.

15. الدروس الشرعية، الشهيد الأول، ص 165.

16. مسالك الأفهام، ص 148.

17. ادعاء الصفويين أنهم من نسل الأئمة أمر نفاه المحققون، راجع مقالة العلامة "محمد القزويني" في مجلة

يادگار، السنة الأولى، العدد 4، ص 27.

18. و. 19. أعيان الشيعة، ج 10، ص 209.

الشاه إسماعيل وتولّى ابنه طهماسب الحكم في العام 931هـ/1524م، وهو الذي عاش طفولته الأولى في هراة، لكي يعزّز من شرعية الدستورية ويضرب القزلباشية المتصارعين على السلطة<sup>19</sup>، واستدعى الشيخ علي الكركي من النجف الأشرف وكتب إليه رسالة تعبّر عن التزامه نظرية النيابة العامة، وقد لُقّب فيها بنائب الأئمة المعصومين وخاتم المجتهدين، ووارث علوم سيّد المرسلين، وكلّ من يخالف أوامره ونواهيه مشرك بالله، وقد جاء في الرسالة: " إلى من اختصّ برتبة أئمة الهدى (ع) في هذا الزمان، نائب الإمام... " وقد أمر جميع السادات العظام والأكابر والأشراف والأمراء والوزراء وجميع أركان الدولة أن يقتادوا له، ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه، كما أمرهم بعزل كلّ من يعزله من المتصدّين للأمور الشرعية في الدولة والجيش، وتنصيب كلّ من ينصّب، ولا يحتاج في العزل والتنصيب إلى وثيقة أخرى، وكان فرمان الشاه على هذه الصورة:

"بسم الله الرحمن الرحيم" بما أنّ مؤدّى حديث الإمام الصادق (ع) الذي يقول فيه: انظروا إلى من كان روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فاضوا به حكماً، فإنّي قد جعلته عليكم حاكماً. فإذا حكم بحكم، من لم يقبله منه فإنما يحكم الله استخفّ، وعلينا ردّ هو رادّ على الله، وهو على حدّ الشرك بالله، فإنّ مخالفة حكم خاتم المجتهدين وارث علوم سيّد المرسلين، نائب الأئمة المعصومين، لا زال كاسمه العليّ عاليًا، وعدم متابعتة يحسب ملعوناً بكلّ تأكيد، ومطردواً من الدولة ومحاسباً ومعاقباً، كتبه طهماسب بن إسماعيل الصفويّ. وقال طهماسب للكركي: "أنت أحقّ بالملك لأنك النائب عن الإمام وإنما أكون من عمالك أقوم بأوامرك ونواهيك".

وكتب رُقمًا إلى جميع المقاطعات أن يمتثلوا أوامر الشيخ، وكان الشيخ يكتب إلى عمال المقاطعات وأهل الاختيار فيها رسائل تتضمّن قوانين العدل وكيفية سلوك عمال الرعية في أخذ الخراج وكميته ومقدار مدّته، وأمر أن يقرّر في كلّ بلدة وقرية إمامًا يصلّي بالناس ويعلمهم شرائع الدين<sup>20</sup>، وقد أعطى الكركي الشاه طهماسب إجازة لحكم البلاد بالوكالة عن نفسه كونه نائبًا عن الإمام المهدي، وعيّنه طهماسب شيخًا للإسلام إلى أن توفي في العام (840هـ) وقيل إنّه مات مسمومًا<sup>21</sup>، ويرجّح أن يكون بعضُ أمراء القزلباش هم الذين دسّوا له السمّ، لأنهم لم يوافقوا على تعيينه في ذلك المنصب الكبير، ولأنّه قلّص نفوذهم.

هذا التطوّر الكبير في الفكر السياسيّ الشيعيّ يعود الفضل فيه إلى المحقّق الكركي، لكن على الرغم من ذلك فإنّ نظرية "النيابة العامة" لم تأخذ طريقها بسهولة بين عامّة الناس وأركان الدولة الصفوية أصحاب الطريقة الصوفية، لذلك تخلّى عنها الشاه إسماعيل الثاني بن طهماسب بعد وفاة أبيه، وابتعد عن العلماء الذين اتهمهم باللعب بأبيه وقلّص نفوذهم<sup>22</sup>....

20 . زندگانی شاه عباس اول، ج 4، ص 95، وما بعدها؛ رياض العلماء، ص 448.

21 . عالم آرای عباسی، ص 154؛ تاريخ شاه اسماعيل، ص 23-24.

22 . أعيان الشيعة، ج 10، ص 209، نقلًا عن لؤلؤة البحرين؛ شرح غوالي اللآلي، لنعمة الله الجزائريّ، تاريخ الشاه إسماعيل، ص 323 و324.

لكن نظرية "النيابة العامة" ظلت تتطور بالتدرج إلى أن أصبحت على يدي الشيخ "محمد مهدي الزاقي" ( المتوفى في العام 1245هـ) أكثر شمولاً وتطوراً، وطرحها تحت عنوان "ولاية الفقيه" وليس تحت العنوان السابق "النيابة العامة" القائمة على قاعدة نظرية (الغيبية والانتظار). ثم تطورت هذه النظرية إلى أن أوصلها الإمام الخميني<sup>23</sup> إلى ما أوصلها إليه، وعلى أساسها قامت الثورة الإسلامية في إيران... هذه الثورة التي أخرجت الفقهاء من حدود الحوزات والأمور الشرعية إلى التعاطي مع شؤون الناس جميعها سياسية واقتصادية واجتماعية، وامتد تأثير أفكار الثورة إلى العالم الإسلامي كله، لا سيما شيعة لبنان وفقهائهم.

**دور الشهيد الثاني<sup>24</sup>:** كان الشهيد الثاني قد تقدّم في مجال صلاة الجمعة وقال بوجوبها، من دون الحاجة إلى استئذان الإمام في عصر الغيبة، وانتقد المحقق الكرّكي على تردّده بإيجابها وقال بقوة بنظرية النيابة العامة في مجال القضاء والحقوق، لكنّه لم يُبح للفقيه تسلّم الخمس، لا سيّما سهم الإمام، كما أنّه لم يتحدّث عن الجهاد في عصر الغيبة ولم يعترف بالدولة الصفوية، ولم يزر إيران لكنّ تأثيره كان قوياً في البناء الفكري للدولة الصفوية من خلال تلاميذه الذين هاجروا إلى إيران وحملوا معهم كتبه وأفكاره، فنشروها وعملوا على تطبيقها، لقد قام الفقهاء الذين ساروا على خطى الشهيد الثاني (أول من عمل على التقريب بين المذاهب الإسلامية) بالتخفيف من حدّة العزلة المذهبية، التي ورّط الصفويّون الاثني عشرية بها، ومن أهمّ هؤلاء "والد الشيخ البهائي الشيخ حسين بن عبد الصمد<sup>25</sup> ( 918هـ- 1512م- 984هـ- 1576م) الذي كان من أوائل الذين درسوا على الشهيد الثاني، وكان مشاركاً له في تصحيح كتب الحديث، ورافقه في سفرته الأولى إلى إسطنبول ورحل معه إلى مصر للدرس، في العام 943هـ/1537م، للأخذ عن كبار علمائها، كما كان من رفاقه إلى دمشق وحلب، ولعلّ هذه الرحلة كان هدفها الأساسي تلطيف حالة العداء نحو الاثني عشرية، التي غدّتها الأخبار التي حملها الفارّون من إيران، والتي تروي فظائع الشاه إسماعيل

23 . راجع الحكومة الإسلامية، الإمام الخميني، ص 114.

24 . الشهيد الثاني: هو الشيخ زين الدين نور الدين علي بن أحمد بن محمد بن جمال الدين بن تقي الدين بن صالح بن مشرف الجبعي العاملي، وُلد في جباع سنة 911هـ/1505م، درس على والده ودرس في جُبع من سنة 934هـ/1527م إلى سنة 937هـ/1530م، ثمّ رحل إلى دمشق وقرأ كتب الطب! والفلسفة والحكمة والإشراق على يدي محمد بن مكّي، ثمّ رحل إلى مصر وقرأ على ستّة عشر شيخاً من شيوخها... وسنة 948هـ/1541، سافر إلى بيت المقدس واجتمع ببعض علمائها وقرأ عليهم... ثمّ توجه إلى إسطنبول وطلب التدريس في المدارس العامة، فأعطى التدريس في المدرسة (النورية) في بعلبك وأقام فيها يُدرّس في المذاهب الخمسة وسنة 965هـ/1557م، كتب قاضي صيدا إلى السلطان سليمان القانوني أنّه وجد في بلاد الشام رجلاً مبتدعاً خارجاً من المذاهب الأربع، فأرسل السلطان في طلب الشيخ ليجمع بينه وبين علماء بلاده... ولكن الملكف بمصاحبتة قتله في الطريق ويُقال إنّ السلطان أنكر عليه فعلته (انظر ترجمته في أمل الأمل، ج 1، ص 85-91؛ تكملة أمل الأمل، ص 212-217؛ الكنى والألقاب، ج 2، ص 370-374؛ أعيان الشيعة، ج 4، ص 144-157).

25 . انظر ترجمته في أمل الأمل، ج 1، ص 75؛ رياض العلماء، ج 2، ص 110؛ لؤلؤة البحرين، ص 23؛ روضات الجنّات، ج 2، ص 346؛ أعيان الشيعة، ج 6، ص 56؛ دلال عباس، بهاء الدين العاملي أديباً وفقهياً وعالمًا، ص 87-93.



ومجازره<sup>26</sup>. سافر الشيخ حسين عبد الصمد إلى إيران بعد أن استدعاه الشيخ علي المنشار (الشيخ علي بن هلال الكركي العاملي، والد زوجة البهائي) الذي كان قد سبقه إلى إيران، والذي تولّى مشيخة الإسلام في قزوین أيام الشاه طهماسب الصفوي، وكانت له مكانة عنده، ولمّا توفي الشيخ علي المنشار عين الشاه طهماسب الشيخ حسين عبد الصمد شيخاً للإسلام في قزوین، وفي قزوین كان الشيخ حسين بن عبد الصمد يقيم صلاة الجمعة من غير احتياط، لقوله بعينيتها على مذهب الشهيد الثاني، ثم عين بعد ذلك شيخاً للإسلام في هراة التي عانت أكثر من غيرها من نتائج الصراع المذهبي بين الصفويين وأعدائهم من الأوزبك المتعصبين. أقام فيها ثماني سنوات، يرشد أهلها وجلهم على غير مذهب أهل البيت وغير خفي حرج مثل هذا الموقف، وكان يتوجّه إليه الطلبة من مختلف أنحاء إيران، وكذلك العلماء والفقهاء من أهل إيران لأجل سماع الحديث وأخذ العلوم الدينية وتحقيق المعارف الشرعية، وورد أمر الشاه طهماسب إلى حاكم خراسان بأن يحضر ولده الأمير "محمد خدابنده" كل يوم جمعة بعد الصلاة إلى الجامع الكبير لسماع الفقه والحديث على الشيخ حسين، وأن ينفاد إلى جميع أحكامه وفتاويه<sup>27</sup>، وفي العام 983هـ/1575م، غادر الشيخ حسين بن عبد الصمد هراة إلى قزوین لملاقة الشاه بها، وطلب الرخصة منه له ولولده البهائي، بالتحجّ إلى بيت الله الحرام، وهو يضمّر في نفسه أمراً، فأذن الشاه له ولم يأذن لولده البهائي وأمره أن يقوم مقام أبيه في هراة<sup>28</sup> وكان هذا أول منصب رسمي يتولاه الشيخ البهائي. نتساءل لماذا ترك الشيخ حسين عبد الصمد إيران وهو لم يلقَ فيها إلا كلّ تعظيم وإكرام؟ نقول في الجواب: إنّه ربما لم يستسغ الترف والجاه والتعظيم المبالغ به للعلماء في إيران، ولربما كان لحالة الشظف والزهد التي كان يحيا فيها علماء جبل عامل، أساتذته، والكذب والعمل للمعاش وللمعاد الأثر الكبير في ذلك الأمر<sup>29</sup>، وقد كان أستاذه الشهيد الثاني بالتحديد وهو من أعظم الفقهاء العلماء، يحرس الكرم ليلاً ويطالع الدروس التي سيلقيها في الصباح على الطلبة، ويحتطب ويشغل بالتجارة ويسافر أحياناً مع من لا يعرفون قدره، ويباشر بناء داره ومسجده بنفسه.

في إيران وجد الشيخ حسين الأمان ولم يلقَ إلا كلّ ترحيب، ولكنّه لم يجد الراحة النفسية، فقد كان قبل ذهابه إلى إيران، يسعى مع أستاذه إلى التقريب بين المذاهب، وها هو يرى بنفسه أنّ التعصب المذهبي الذي عانى منه هو وأنداده في جبل عامل وجعله يفرّ بنفسه وبأهله إلى إيران، له مثل في تعامل حكام إيران مع العلماء المخالفين، ففرّ إلى مكة قاصداً الجوار فيها إلى أن يموت، ولكن مكة والمدينة كانتا تحت سيطرة العثمانيين وكان الشيعة

<sup>26</sup> . مستدرك الوسائل، ج3، ص 432.

<sup>27</sup> . مستدرك الوسائل، ج 3، ص 421؛ أعيان الشيعة، ج 8، ص 369؛ تكملة أمل الأمل، ص 477.

<sup>28</sup> . مستدرك الوسائل، ج 3، ص 421؛ أعيان الشيعة، ج 6، ص 58.

<sup>29</sup> . أجرى السيّد محسن الأمين مقارنةً طريفة بين حالة علماء جبل عامل وحالة العلماء في إيران: الأعيان، ج 9، ص 293-240.

يتعرّضون فيها للضغط والتهديد بسبب ردّات الفعل المهلّكة<sup>30</sup>، لذا لم يجد له أخيراً موثلاً سوى البحرين حيث مات بعد سنة واحدة في العام 984هـ/1676م.

ومن البحرين كتب الشيخ حسين إلى ابنه الشيخ البهائي رسالةً يطلب إليه فيها أن يأتي إليه في البحرين: "فيا ولدي، لو كنت تطلب شيئاً لدنياك فاعمد بلاد الهند، وإن حاولت الآخرة فالحق بنا إلى هذا المقام، وإن كنت لا تريد الدنيا ولا الآخرة فلازم العجم ولا تبرح"<sup>31</sup>

إنّ علماء جبل عامل من تلامذة الشهيد الثاني<sup>32</sup> هم الذين أسسوا للتّيّار الاجتهاديّ في إيران، وأفتوا بصلاة الجمعة، ومارسوا ذلك عملياً في المساجد التي كانوا أنمّتها على الرغم من معارضة التّيّار الإخباريّ لذلك، كما أنّهم تابعوا عمل الشهيد الثاني في غربلة الأحاديث، وكان كتابه "الدراية في الحديث" مرجعاً لهم. إلى أن وضع الجيل الثاني ممثلاً بالشيخ البهائي كتبه الخاصّة التي تمثّل قمّة ما توصل إليه التّيّار الاجتهاديّ، ولكنّ التّيّار الاجتهاديّ ينتكس بعد موت الشاه عباس والوهن الذي دبّ في أوصل الدولة المركزيّة، فتقوى المؤسّسة الفقهيّة التي يغلب عليها التّيّار الأخباريّ على حساب الدولة.

والأهمّ من كلّ ذلك أنّ كتب الشهيد الثاني، لا سيّما كتابه "منية المرید في آداب المفيد والمستفيد" الذي ألفه الشيخ في العام 954هـ، كان الأساس الذي انبنت عليه أسس التعليم في إيران، وقد ظلّ حتى الربع الأوّل من القرن العشرين من الكتب المعتمدة في المدارس الدينيّة<sup>33</sup>

لا يسعنا ونحن نتحدّث عن دور العلماء العاملين في بناء الدولة الصفويّة فكرياً وعمرانياً، إلّا أن نذكر الشيخ بهاء الدين العامليّ<sup>34</sup>، (ابن الشيخ حسين بن عبد الصمد، الذي ولد في بعلبك في السابع عشر من ذي الحجّة عام 953هـ/1547م، وكان في السابعة من عمره حين هاجر أبوه إلى إيران في أواخر العام 960هـ/1552م، وأقام مع أبيه في قزوین ثمّ في مشهد فهراة، حيث تولّى فيها مشيخة الإسلام في العام 983هـ، وتولّى مشيخة الإسلام في إصفهان زمن الشاه عباس الكبير منذ العام 1008 حتى 1030هـ/1060م عام وفاته، لقد ارتبط اسم الشيخ البهائي باسم الشاه عباس أهمّ الملوك الصفويين وأقدرهم، والذي تسمع اسمه حين تزور إصفهان أنّي توجّهت ماثلاً في الآثار العمرانيّة التي ما زالت قائمة حتّى

30 .روضات الجنّات، ط 2، ص 240-390.

31 .راجع دلال عباس، بهاء الدين العامليّ أدبياً وفقهياً وعالمياً، ص 113 وما بعدها.

32 . عدد هؤلاء كبير جداً كما يتضح من رسالة ابن العوديّ الجزينيّ تلميذ الشهيد الثاني، راجع دلال

عبّاس، بهاء الدين العامليّ، ص 113 وما بعدها.

33 . عيسى صدّيق، تاريخ فرهنك إيران، ص 551.

34 . راجع كتاب الباحثة: بهاء الدين العامليّ أدبياً وفقهياً وعالمياً، دار الحوار، بيروت 1995، وهو المرجع الأشمل عن الشيخ البهائي كما وصفه النقاد، ودار المؤرّخ العربيّ 2010.

اليوم، فنتساءل ماذا فعل الشيخ البهائي في إيران ليلقى هذه الحفاوة والتكريم من الناس قديماً وحديثاً ولينال هذه الشهرة التي لم ينلها أحدٌ قبله في حياته وبعد مماته؟

يجب أن نذكر قبل ذلك أنّ الشاه عبّاس (978هـ/1571م-1038هـ/1629م)، الذي فرض منذ بداية حكمه استقراراً لم تتعم به إيران في عهد خلفائه، كان دكتاتوراً، وحرصه على الانفراد بالحكم، جعله لا يعطي علماء الدين فرصةً للتدخل في شؤون الحكم، لذلك قنن سلطة الفقهاء بعد أن كانت مطلقة في زمن جدّه طهماسب وأبيه محمّد خدابنده، وحدّ من تدخلهم في شؤون الدولة السياسيّة والحربيّة، فاقصر دورهم على الأمور الشرعيّة، ولم يكن لهم دور في مسار الدولة داخلياً وخارجياً.

بعيداً من الأمور السياسيّة، كان الشاه مجلّاً للعلماء، محترماً لهم، ولا سيّما الشيخ البهائي، الذي كانت له مكانته وشهرته العلميّة قبل تولّي عبّاس الحكم، لذلك سلّمه مشيخة الإسلام، وكانت للشيخ سلطة معنويّة على الشاه<sup>35</sup>.

ففي حمأة الصراع المذهبيّ بين الدولتين العثمانيّة والصفويّة، وفي وقت ازداد فيه التعصّب على حساب الدين، سار البهائي على خطى أبيه وخطى الشهيد الثاني، في محاولة التقريب بين المذاهب الإسلاميّة المختلفة، وكانت بينه وبين كبار علماء السنّة، الذين التقى بهم في أثناء رحلته إلى مصر والشام والقدس محاورات<sup>36</sup> نستشفّ من خلالها معالم شخصيّة التي اخترقت الحدود المغلقة التي أقامت سياسات السلاطين العثمانيين والشاهات الصفويين. لقد اختار الشيخ البهائي معاشة الواقع، وكانت له سلطة معنويّة على الشاه كما ذكرنا، فلم يتوان عن انتقاد الشاه في كثير من المواقف، كانتقاده له علانية حين أقام "عيد الأضواء" في محرّم الحرام، ولومه على فعلته الشنيعة حين أمر بقتل ابنه ووليّ عهده، والأهمّ من كلّ ذلك أنّ الشاه عبّاس أبطل بتأثير البهائي عادة سبّ الخلفاء الثلاثة، هذه البدعة التي بدأت كما ذكرنا في عهد مؤسس الدولة الصفويّة إسماعيل الأوّل<sup>37</sup>، ردّاً على سبّ الأمويين للإمام عليّ عليه السلام.

لقد سلك الشيخ البهائي مسلكاً مختلفاً عن مسلك غيره من العلماء الذين كانت لهم منزلته أو أقلّ منها في إيران، والذين كانوا لا يخرجون إلّا في مواكب شبيهة بمواكب الملوك، فكان يتجوّل في أحياء الفقراء، ويدخل أكواخهم ويجالسهم، ويتجوّل في الحواري والأسواق، فأعطى بمسلكه هذا درساً للشاه الحاكم، فسار على خطاه وقلّده في الخروج إلى الأسواق الشعبيّة للاطلاع على أوضاع الرعيّة، فيعمد إلى تخفيف الضرائب عن كواهلهم، ويجوس

<sup>35</sup> . راجع بهاء الدين العامليّ أديباً وفقهياً وعالمياً، م.س، ص 180-190.

<sup>36</sup> . م.ن، ص 170-180.

<sup>37</sup> . م.ن، ص 184-186.

الأسواق متتكرًا يشتري من الباعة ليتأكد من أنهم لا يطففون المكاييل، ولا يتلاعبون  
بالأسعار<sup>38</sup>.

نضيف إلى سموّ تفكير الشيخ البهائي أنّه لم يتعصّب لمذهب على مذهب، ولم يتحزّب  
داخل إيران لفريق من الأفرقاء المتصارعين على آخر، بل كان يتدرّج فيهم بأساليب  
الإصلاح، وهذا الأمر هو الذي حدا بكلّ فريق أن يعده من أهله، وأعمل جهده للجمع بين  
أنصار الطريقة وأنصار الشريعة، بين مترمّتي الفقهاء ومتطرّفي العارفين، وانتقد الجمود  
والتقليد، وشنّ الحملة نلو الحملة في شعره ونثره العربيّ والفارسيّ على الفقهاء الجامدين  
الفسريين وعلى المنتفعين من الدجل والرياء.

إنّ مكانة الشيخ البهائي العلميّة في أكثر ميادين المعرفة دفعت الناس إلى الحديث عنه،  
وكأنّه شخصيّة أسطوريّة، وإنّ كثرة الغرائب والأعاجيب والأساطير لتي نسبت إليه على  
الرغم من المبالغة التي تشعّ من زواياها، تعبّر تعبيرًا واضحًا عن مكانة البهائي العلميّة  
ونفوذه البالغ على أفكار الناس، فقد حُكي أنّه استطاع أن يُحطّم الذرّة وأن يسيطر على  
طاققتها، وأنّ من مظاهر ذلك، أنّه صنع "شمعة" أوقدها في أتون حمّام إصفهان، وأنها كانت  
تكفي لتدفئة حمّام بكامله مدّة طويلة من دون أن تتغيّر<sup>39</sup>، ولا تزال آثار هذا الحمّام قائمة  
الآن في إصفهان ويُسمّى "حمّام إصفهان" أو "حمّام شيخ بهائي"، ويقع بين المسجد الجامع  
والسوق القديمة قرب المحلّة المعروفة "بدر الإمام"، وأهالي إصفهان يعتقدون أنّ مصمّم  
هذا الحمّام هو الشيخ البهائي، وأنّه صنع شمعة تكفي لتسخين الماء في رجل الحمام الكبير،  
وأنّ البهائي كان قد قال، إنّه إذا ما هُدم الجدار الذي يمنع دخول الهواء إلى الشمعة، فإنّها  
سنتطفئ وهكذا كان، فلمّا دعت الضرورة إلى أن يُعاد تعمير المسجد، وهُدم أساس الأتون  
حيث كانت الشمعة في مكان معزول عن الهواء انطفأت وذهب سرّها<sup>40</sup>، ويُنسب إليه أيضًا  
صنع "ساعة شمسيّة" دوّامة الحركة من دون أي حاجة لمن يحركها، وكذلك تركيب  
"مسحوق أبيض" يُستخدم في الدهان<sup>41</sup>.

وبما أنّ الشيخ كان محيطًا بالهندسة والمساحة فإنّ المؤرّخين والناس ينسبون إليه تصميم  
أكثر المباني التي تمّ بناؤها في زمن الشاه عبّاس الصفويّ وهندستها، فهم ينسبون إليه بناء  
مسجد شاه في إصفهان، وأنّه هو الذي عينّ سمت القبلة فيه، ومشهور أيضًا أنّ هيئة شكّلت  
في زمن الشاه عبّاس برئاسة الشيخ البهائي لتوزيع مياه نهر "زاينده رود" على مدينة  
إصفهان والقرى المجاورة، وقد وضع تصميم توزيع المياه للمدينة والقرى المحيطة بها،

38 . زندگانی شاه عباس اول، ج 2، ص 368-370.

39 . فلاسفة الشيعة، عبد الله نعمة، ص 407، نقلًا عن: "أجوبة المسائل الدينيّة"، العدد 6، الدورة 4،

1379هـ، كربلاء-العراق، ص 232.

40 . آثار وأشعار شيخ بهايي، ص 50.

41 . م.ن، ص.ن.

وصناعة المواسير والخزانات وأصل الطومار في إصفهان ويُعرف بـ "طومار شيخ بهائي" كما ينسبون إلى الشيخ البهائي تصميم قناة "نجف آباد" في إصفهان والتي تُسمى "قناة زرين كمر" من أكبر قنوات إيران، وطولها من أولها إلى آخرها تسعة فراسخ وتوزع مياهها على إحدى عشرة بركة كبيرة<sup>42</sup>.

كان للشيخ البهائي، معلماً، دور في تبسيط المواد التي يعلّمها، وفي تبويبها، وقد ظلّ كتابه "الصدية في النحو" منذ عصره إلى زمن قريب الكتاب المتداول والمقرّر لتدريس النحو في مدارس إيران<sup>43</sup>، ولا أبالغ إذا قلت إنّه لا يزال حتى الآن أكثر كتب النحو تبسيطاً، علماً بأنّ صاحبه وضعه قبل أربعة قرون. كما أنّ كتابه "خلاصة الحساب" اعتمد حتى نهاية النصف الأوّل من القرن العشرين لتدريس الرياضيات والحساب في مختلف مدارس إيران كما يقول مترجمه محمّد جواد الطهراني<sup>44</sup>، وكان داخلاً ضمن منهج الدراسة في النجف الأشرف حتى منتصف القرن العشرين أيضاً<sup>45</sup>، حيث لخصّ في هذا الكتاب الحساب والجبر وأعمال المساحة المتفرقة في عشرات الكتب عن العلماء السابقين، وقدم هذه المعلومات في صورة مرتبة كل الترتيب، واضحة كلّ الوضوح، وأورد العديد من الأمثلة التي تزيل الغموض عن الموضوعات المستعصية، كما قدّم قواعد وفوائد لتسهيل أعمال الحاسوب، كما ذكر هو نفسه في مقدّمة الكتاب<sup>46</sup>.

والشيخ البهائي أوّل من قدّم كتاباً في "الفقه الميسر" وظلّ كتابه "جامع عباسي" أكثر كتاب فقهيّ تداولاً في إيران والهند، فالكتاب بالفارسيّة ولم ينقله أحد إلى العربيّة، وإن كان الذين وضعوا في هذا القرن كتباً في الفقه الميسر قد تأثروا بتبويبه من دون أدنى ريب، وهو يُعدّ أوّل رسالة علميّة فقهيّة غير استدلالية ودورة كاملة في الفقه<sup>47</sup>، كان قصد الشيخ البهائي من كتابته باللغة الفارسيّة البسيطة والمباشرة، تعريف عامّة الناس في إيران بأحكام الدين كي لا يظنّ فهم أمور الدين منحصراً بالأشخاص الذين يعرفون العربيّة<sup>48</sup>، فهو جامع وميسر ومختصر في آن معاً، دعا فيه من يرغب في معرفة تفاصيل بعض الأمور أن يرجع إلى كتبه المفصلة الأخرى المكتوبة بالعربيّة.

لقد بلغ عدد تلامذة البهائي المئات كما تذكر كتب التراجم، وحسبُ الشيخ البهائي أن يكون "الملا صدرا الشيرازي" المتوفّى في العام 1051هـ/1640م من تلامذته، أُشرب على يديه المذهب الفلسفيّ العرفانيّ الذي يلخصه قول البهائي: "من تفقه ولم يتصوّف فقد تفيقه"،

42. م.ن، ص 490؛ دلال عباس، بهاء الدين العاملي، ص 203-205.

43. الدرّة الثمينة في شرح الصديّة، ص 4.

44. اللباب في شرح خلاصة الحساب، محمّد جواد الطهراني، 1400هـ/1980م.

45. راجع بهاء الدين العاملي أديباً وفقهياً وعالمياً، ص 654.

46. م.ن، ص 654.

47. مرتضى مطهرى، الإسلام وإيران، ص 340.

48. عيسى صديق، تاريخ فرهنگ ايران، ص 241.

ومن تصوّف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقّق<sup>49</sup>، فخلق منه صوفيًا وعرفانيًا وفيلسوفًا إلهيًا فريدًا، وقد أورد في كتابه المشهور "الأسفار الأربعة" قوله: "حاشا الشريعة الحقّة الإلهيّة البيضاء أن تكون أحكامها مصادمة للمعارف اليقينيّة الضروريّة، وتبًا لفلسفة تكون قوانينها غير مطابقة للكتاب والسنة"<sup>50</sup>.

كان البهائي كذلك شاعرًا<sup>51</sup> باللغتين العربيّة والفارسيّة وكان شعره باللغتين أرقى من شعر معاصريه، ولقد أسدى إلى الثقافتين العربيّة والفارسيّة خدمةً بتطوير النظم في كلّ منهما باعتماده في كلّ منهما وزنًا من أوزان الأخرى، فقد نظم كثيرًا من شعره العربيّ على طريقة الرباعيّات الفارسيّة، كما أنّه نوع في أوزانه وقوافيه في عدد كبير من قصائده.

وكان شعره الفارسيّ أرقى من شعر معاصريه، ولم يلجأ إلى أسلوب التصنيع الذي صبغ الشعر في عصره، والذي سُمّي "الأسلوب الهندي"، ويقول النقاد إنّ الوحيد الذي لم يتبع هذا الأسلوب، وهو أوّل من نظم الشعر الفارسيّ على بحر الخبب وهذا الوزن لم يكن معروفًا عند الشعراء الفرس قبل البهائي.

نضيف أنّ البهائي قاد الصراع الفكريّ في عصره على جبهتين:

1- مواجهة الفقهاء الفشريّين الجامدين المفتونين بظاهر الدين وقلوبهم خالية من العرفان.

2- مواجهة متصوّفة عصره الذين كانوا يدعون إلى الباطن دون الظاهر، والذين طغت عندهم المظاهر والكليّات على أساليب النظر الفلسفيّ العميق، وانتهى التصوّف على أيديهم إلى تقاليد وطقوس شكلية خالصة، كأنّه كان أمّة في رجل وعلما في عالم واحد، إنّ من الندرة الذين لا يجود الزمان بمتلهم إلّا قليلاً، إنّ ليس للعرب ولا للفرس، إنّه للإنسانيّة بما ترك من آثار تجاوزت حدود الزمان والمكان.

3- نذكر من معاصري الشاه عبّاس الصفويّ والشيخ البهائي من علماء جبل عامل: الشيخ لطف الله عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد العال الميسي<sup>52</sup>، هاجر من جبل عامل إلى مشهد، شأنه شأن عدد كبير من العلماء العاملين الذين كانوا يزورون المشهد المقدّس الرضوي، فيطلب إليهم العلماء والطلبة أن يظّلوا في إيران فيلبّون طلبهم<sup>53</sup>، أو علماء يسافرون إلى إيران هربًا من العثمانيّين وفي نيّتهم البقاء فيها، وقد بقي الشيخ لطف الله في المشهد المقدّس حتى العام 997هـ/1588م حين تعرّضت لهجوم الأوزبك ومنها لجأ إلى قزوين، فاشتغل هناك بالتدريس ثمّ استدعاه الشاه عبّاس إلى إصفهان في العام 1011هـ/

49 . كليات وأشعار شيخ بهاي، ص 144.

50 . أعيان الشيعة، ج 9، ص 323.

51 . انظر دلال عبّاس، بهاء الدين العامليّ أدبيًا وفقهيًا وعالمًا، فصل البهائي شاعرًا، ص 351-498.

52 . انظر ترجمته في أعيان الشيعة، ج 9، ص 38، أمل الأمل، ج 1، ص 136.

53 . بغية الراغبين، ص 115.

1602م، وأمر أن تُقام له مدرسة ومسجد يحملان اسمه، انتهى بناؤهما في العام 1028هـ/1618م، وقد توفي الشيخ في العام 1032هـ/1622م، بعد عامين من وفاة الشيخ النهائي، ولا يزال مسجد الشيخ لطف الله قائماً في إصفهان حتى اليوم يقع في الضلع الشرقي من ميدان "نقش جهان" في الجهة المقابلة لعمارة المسجد، أما المدرسة التي كانت ملحقة به، وكانت مقرّاً لإقامة الشيخ وتدرّسه فقد تهدّمت، بينما لا تزال آثار المدرسة التي أُقيمت في الوقت نفسه لإقامة "الملا عبد الله الشوشترّي" وتدرّسه قائمة حتى اليوم بجوار سوق القيصريّة في الضلع الشمالي من ميدان "نقش جهان"<sup>54</sup>.

نذكر من علماء جبل عامل في إيران في مرحلة انهيار الدولة الصفويّة سياسياً الذي رافقه تراجع للتّيّار الاجتهاديّ واتهام للمبدعين والمجتهدين وأهل العرفان في دينهم بعد غلبة التّيّار الأخباري الصرف على المؤسّسة الفقهيّة في إيران، الشيخ "محمد بن الحسن الحرّ العاملي"<sup>55</sup>، من مواليد مشغرة في جبل عامل، درس في جباع، وفي الأربعين غادر إلى العراق، ثمّ إلى خراسان زمن الشاه سليمان الصفويّ آخر ملوك الصفويّين (1077هـ/1667م-1105هـ/1694م). كان محمد بن الحسن الحرّ شاعراً وله ديوان مطبوع، وكان يدير حلقة للتدريس في مشهد الإمام الرضا (ع)، يحضرها جماعات من سائر الأقطار، يدرّسهم في كتابه "وسائل الشيعة" وهو كتاب حديثي ضخم يبدو صاحبه فيه أخبارياً صرفاً في اتجاهه الفقهي، ولكنّه لم يكن منطرفاً، ولم يشعّ على الاجتهاديين كما فعل عدد من معاصريه، لذلك نراه في كتابه "أمل الأمل في علماء جبل عامل" يذكر أعلام الفريقين الاجتهاديّ والأخباريّ باحترام.

من العائلات العلميّة التي أدّت دوراً مهمّاً في جبل عامل وفي العراق وإيران، وفي الوقت نفسه أدّت خدمة بل خدمات إلى الثقافتين العربيّة والفارسيّة "آل الصدر" وإليهم تنتسب عائلات "صدر" و"صدر زاده" و"صدر عاملي" و"مستجاب" و"خادمي" في إيران<sup>56</sup>. وعائلة الصدر من الأسر العلويّة الشهيرة في العراق، كان موطنها الأوّل في بغداد وكربلاء فكانت تُعرف آنذاك بآل الحسين القطعي، وتنتسب إلى الإمام موسى الكاظم، بقي أفراد الأسرة في كربلاء وهاجر بعضهم إلى جبل عامل، وعُرفوا بآل شرف الدين (نسبة إلى العلّامة إبراهيم الملقّب بشرف الدين)<sup>57</sup> وقد هاجر ابنه السيّد محمد أبو صالح من جبل عامل إلى العراق ومنها إلى إصفهان للأخذ عن علمائها في العام 1083هـ/1672م، وتتلّمذ على الشيخ السيزواريّ الذي زوّجه كريمته.

وهذا التزاوج والمصاهرة بين العائلات العامليّة والعائلات الإيرانيّة أو بالأحرى بين عائلات العلماء في لبنان والعراق وإيران، نتج عنه تداخل في الأنساب وعلاقات قربي،

<sup>54</sup> . مجلّة يادگار، سال اول، ص 61؛ آثار ملى اصفهان، ص 70، المشاهدة المباشرة.

<sup>55</sup> . راجع ترجمته في أمل الأمل، ج 1، ص 20-40؛ لؤلؤة البحرين، ص 63064؛ الكنى والألقاب، ج 2، ص 158، وفي مقدّمة أمل الأمل ثبت بأسماء مؤلفاته.

<sup>56</sup> . راجع بغية الراغبين، ج 2، ص 170 و175 و180.

<sup>57</sup> . راجع بغية الراغبين، ص 235، نقلاً عن الشيخ علي الخاقاني، في (شعراء بغداد)، ج 1، ص 205.

وجعل هذه العائلات تنتمي إلى الفكر الإنسانيّ عامّة وأن لا تتفوق في الحدود الجغرافيّة، وجعل ثقافتها الدينيّة والأدبيّة أكثر غنىً وتوّعاً وشمولاً، تضرب في عمق الثقافتين العربيّة والفارسيّة، فتعتني من الثقافتين، وتغنيهما في الوقت عينه.

زار السيّد (محمّد أبو صالح) في العام 1099هـ/1687م مشهد الرضا (ع)، وأنزله محمّد بن الحسن الحرّ العاملي في داره، ثم حجّاً معاً، وعادا معاً إلى شحور في جبل عامل، وقد حملت كتبه مع ما حُمِل في فتنة الجزّار إلى أفران عكّا، وتوفّي في شحور في العام 1139هـ/1726م، أمّا ابنه السيّد صالح فقد أوى في أثناء فتنة الجزّار وإحراق مكتبة العائلة في العام 1148هـ/1735م إلى كهف في واد عميق، ولكن قبض عليه، وأودع السجن، وفي العام 1149هـ/1736م هرب من سجن الجزّار وفرّ إلى العراق، وتوفّي في النجف في العام 1217هـ/1802م وفي ما بعد هاجر ابنه السيّد أسد الله والسيّد صدر الدين من النجف واستوطنوا إصفهان، والسيّد صدر الدين جدّ آية الله خادمي وجدّ السيّد موسى الصدر وجدّ السيّد عبّاس صاحب **نزّهة الجليس**، وأخ الجدّ الأكبر للكاتب "محمّد علي جمال زاده".

وُلد السيّد صدر الدين ابن السيّد صالح في العام 1193هـ/1779م، استوطن إصفهان في العام 1217هـ/1812م وشيّد في إصفهان مسجداً فخماً قلّ نظيره، ومع أنّه غادر جبل عامل وهو في السادسة بعد هرب والده من سجن الجزّار، إلّا أنّه ظلّ طيلة عمره على اتصالٍ بمن يسافر إلى إيران من العامليين، يتعرّف أخبارهم ويسأل عن علمائهم وزعمائهم وعشائريهم وبيوتاتهم وأنسبائهم.. ويتحدّث عن كلّ ذلك في مجالسه كما يتحدّث عن أطوار أهل جبل عامل وأزيانهم وسائر شؤونهم<sup>58</sup>.

وهكذا استمرّت العلاقة بين آل الصدر في إيران والعراق والنجف ولم تنقطع لا سيّما بين العلماء منهم، وبما أنّ أعلامهم كُثُر وكتب التراجم ذكرتهم جميعاً وهم بالمئات<sup>59</sup>، سنكتفي بذكر الأكثر شهرةً وتأثيراً:

**آية الله خادمي**<sup>60</sup> حفيد السيّد صدر الدين ابن السيّد صالح ابن السيّد محمّد ابن السيّد شرف الدين. هو أحد أكبر المراجع في إصفهان في القرن العشرين، وُلد فيها في 3 شعبان 1319هـ/1910م، درس على كبار العلماء في إصفهان وفي النجف، وكان إمام الجماعة في إصفهان، ومدرّس الفقه والأصول فيها، وله عددٌ من المؤلّفات، وكان المرجع الذي يعود إليه الجميع في إصفهان من العلماء والفقهاء والعامّة، وكان من أهمّ المساندين للثورة الإسلاميّة، وكانت خطبته كلّها تركّز على أهميّة الثورة ضدّ الحاكم الغاشم، وتتضمّن توجيهات حكيمة إلى الشباب وبقية أفراد الشعب، وقد جاء في التقرير الذي أعدّه الصحافيّ الفرنسيّ الكبير (دومنيك بوشين في جريدة (لوموند) في العدد الصادر في 12 ك/1978م قبل نجاح الثورة ما يلي: "لقد انتقلت السلطة في إصفهان ثانية المدن الإيرانيّة الكبرى من يدِ

58. راجع بغية الراغبين، ص 148-150.

59. راجع خاصّة بغية الراغبين بجزأيه للسيّد عبد الحسين شرف الدين.

60. م.ن، ص 184، وما بعدها.



إلى أخرى، وانتقل الحكم من يد السلطات الرسميّة إلى يد الثورة الإسلاميّة، وهناك انفصال كليّ عن الدولة المركزيّة في طهران، ونوّاب المدينة بين فارّاً أو مستسلم، ومحافظ المدينة فرّاً كذلك، وقوّات الشرطة في حالة شللٍ من جرّاء انضمام بعضهم إلى الثورة، وكذلك الحالة في الجيش، حيث يلتحق يومياً عشرات الجنود والضباط إلى صفوف الشعب كما أنّ إدارات الدولة والمحاكم القضائيّة في حالة إضراب عن العمل. أمّا الحاكم الواقعيّ للمدينة فهو: " آية الله خادمي " الحكيم الذي هو في سنّ الشيخوخة، وأوامره تتفدّ من دون أيّ تردّد، يُصدرها من بيته الذي تحوّل إلى مركز أعمال الثورة في المدينة، يجلس على الأرض في غرفته المفروشة بالسجاد يتكلّم مع زائريه بصوت منخفض، ومشاوروه يقولون لنا: إنكم لا تستطيعون أن تلاحظوا أيّ خطأ في تصرّفات القائد وفي أوامره، وقد قال لي أحد أعضاء الجبهة الوطنيّة: إنّ آية الله خادمي رجل سياسيّ خبير، وله ماضٍ مجيد حافل، وكان احد مؤيدي مصدّق<sup>61</sup> و(آية الله الكاشاني)، وقد زادت شهرته وفاعليّته في السنوات الثلاثين الأخيرة، وهو الآن الحاكم الفعليّ للمدينة، والغرف المجاورة لغرفة الإمام مليئة بالمجاهدين والمتطوّعين لتنظيم الأمور في المدينة: " لسدّ النقص في الاقتصاد وتموين الفقراء، وتفقّد عائلات الشهداء وتمويل عائلات الموظّفين، الذين أُضربوا وطُردوا من إداراتهم، والمصدر الأساس لتمويل الثورة (سهم الإمام)... ومع أنّ البلاد في حالة ثورة، فإنّ المدينة هادئة وعند اشتداد ظلام الليل يتمركز أفراد الشرطة الإسلاميّة والحرس الثوريّ في جميع نقاط المدينة، للحراسة ومراقبة المشبوهين، والأمور كلّها تسير بنظام وهدوء". وحين اعتقل الإمام الخمينيّ في المرّة الأولى كان آية الله خادمي على رأس العلماء الذين تتادوا من جميع أنحاء إيران وذهبوا إلى طهران يناشدون النظام الغاشم الإفراج عن الإمام<sup>62</sup>.

### محمد علي جمال زاده:

أول كتاب القصّة الفارسيّة المهمّين، إيرانيّ من أصل لبنانيّ خريج مدرسة عينطورة. يشغل السيّد محمد علي جمال زاده مكانة مميّزة في الأدب الفارسيّ المعاصر، وكان له دور ملحوظ في نهضة هذا الأدب، وهو واحد من مجدّدي اللغة الأدبيّة الحديثة. جدّه الأكبر العلامة السيّد محمد علي ابن السيّد صالح ابن السيّد محمد ابن شرف الدين سافر من جبل عامل إلى إيران لزيارة المشهد المقدّس ومرّ بإصفهان وفيها أخوه السيّد صدر الدين<sup>63</sup> فنزل في رحابه مريضاً. وتوفّي في إصفهان في العام 1241هـ/1825م، فبقي

61 . الدكتور "محمد مصدّق" بطل إيران وسياسيها الفذّ (1878-1966م)، كان النائب الوحيد الذي عارض استبداد "رضا خان بهلوي" فكان أن سجنه ونكل به، ولما تولى الوزارة في العام 1950م عمل علي تأميم النفط وسانده "آية الله الكاشاني" وبعض العلماء الآخرين من مؤيديه، وكاد مشروعه أن ينجح، حيث تمكّن من طرد الشاه لكنّ الثورة فشلت وألقي القبض على مصدّق وحُكّم عليه بالسجن ثمّ وُضِع في الإقامة الجبريّة في قريته أحمد آباد إلى حين وفاته (منقول مختصراً من مختصر تاريخ إيران، ملك الشعراء بهار، ج. 1).

62 . راجع بغية الراغبين، ص 184 إلى 190.

63 . آل الصدر من العائلات العلميّة الشهيرة في العراق، كان بعضهم قد هاجر إلى جبل عامل حيث عُرفوا بأل شرف الدين (راجع بغية الراغبين، ص 1235)، ثمّ عاد بعضهم وهاجروا إلى العراق وإيران هرباً من ضغوط الدولة العثمانيّة.

أبنائه في إيران... أمّا والده الأديب السيّد جمال الدين الواعظ، الملقّب بصدر الواعظين وصدر المحقّقين، فقد كان من أكثر الوعاظ تنوّراً في مرحلة ما قبل الثورة الدستوريّة، وخطبته التي كان يلقيها على الملأ لا تزال تُذكر حتّى اليوم ويُستشهد بها، وليس فقط بسبب هجومها العنيف على الاستبداد فحسب، بل لسحر لغتها اليوميّة البسيطة التي أكسبته آلاف المعجبين في كلّ أنحاء إيران، وقد أسّس أتباعه صحيفةً سمّوها "الجمال" نشروا فيها خطبه ومواعظه، وقد ناضل خلال الثورة الدستوريّة<sup>64</sup> بإيمانٍ وشجاعة من أجل حقوق الشعب وأصدر في طهران بالشراكة مع الشيخ أحمد الكرمانيّ كتاب "رؤياى صادقّه" [الرؤيا الصادقة] الذي كان إضافة إلى خطبه الحماسيّة السبب وراء مقتله مسموماً في السجن بأمرٍ من السلطان محمّد علي شاه في العام 1326هـ/1908م.

### في لبنان وفرنسا وسويسرا

وُلد محمّد علي جمال زاده في إصفهان قبيل نهاية القرن التاسع عشر، العام 1895، وبدأ دراسته فيها، وأُرسل وهو في العاشرة من عمره إلى لبنان<sup>65</sup> وأدخل كليّة عينطورة للربان اللعازاريين، حيث أكمل دراسته المتوسّطة والثانويّة وأتقن اللغتين العربيّة والفرنسيّة. وفي مدسة عينطورة ظهرت مواهبه الأدبيّة فكان يكتب في المجلة المدرسيّة مقطوعاتٍ أدبيّة مختلفة باللغة الفرنسيّة، ومن لبنان سافر إلى فرنسا في العام 1910، بعد إقامة قصيرة في مصر، ثمّ سافر إلى سويسرا، حيث بدأ دراسة القانون في جامعة لوزان ثمّ في ديجون حيث نال إجازته، وبوفاة والده عاش في ضائقة مادّيّة أنقذه منها جزئياً مساعدات أصدقائه، وإعطاؤه بعض الدروس الخصوصيّة. واتصل "جمال زاده" خلال الحرب العالميّة الأولى بجماعة القوميّين في برلين، واشترك معهم في حملة سياسيّة وثقافيّة موجهة بالتحديد ضدّ الأطماع الأجنبيّة والتدخّل الأجنبيّ في إيران، وكان أوّل من أسند إليه تأسيس صحيفة في بغداد في العام 1915م، ثمّ عاد إل برلين وشارك رفاقه في إصدار صحيفة "كاوه"، وكان أوّل عمل له في هذه الصحيفة مقالة بعنوان "حين تجبر الأمة على العبوديّة"، وخلال هذه المرحلة نشر كتابه الأوّل "كنج شايگان يا اوضاع اقتصادى ايران 1916-1917" [الكنز الثمين أو أوضاع إيران الاقتصاديّة].

بدأت حياة جمال زاده القصصيّة بنشر "فارسي شَكَراست" [سكّر هي الفارسيّة] وهي أوّل قصّة فارسيّة نالت نجاحاً كبيراً، وقد ظهرت مع خمس قصص أخرى من النوع نفسه من المجموعة الشهيرة "يكي بود يكي نبود" [كان يا ما كان] في برلين في العام 1921م.

64 . الثورة الدستوريّة في أثناء حكم مظفّر الدين شاه ابن ناصر شاه الذي وُلد في العام 1269هـ

وكان ضعيف النفس غير حازم في الأمور، فطمع فيه رجال البلاط وجعلوه آلة في أيديهم. دامت سلطنته بعد أبيه أحد عشر عاماً، وتوفّي في العام 1324هـ، انظر بغية الراغبين، ص 286.

65 . انظر بغية الراغبين، ص 386؛ النثر الفنّي، لحسن كشماد، ص 145؛ حسن تقي زاده، تاريخ اوایل انقلاب مشروطيت، طهران، 1959م.

هذا الكتاب يلقي الضوء على شخصيّة جمال زاده الأدبيّة، ذلك أنّه يكشف موهبة الشاب الأدبيّة التي تثير الدهشة كما يشهد هو نفسه، في سيرته الذاتيّة<sup>66</sup> : "كنت قد تعودت كتابة الفارسيّة بصعوبة بالغة، وحين غادرتُ إيران وأنا في ميعة الصبا لم تكن الفارسيّة تُعلّم كما ينبغي في المدارس، وكانت فارسيّتي ضعيفة إلى حدّ كبير... لقد تعلّمت الفارسيّة من دون أيّ وسائل أو معلّم أو درس، وذلك بالاعتماد على نفسي، وبكلّ وسيلة أقدر عليها"<sup>67</sup>.

ولأسباب ماديّة اضطرّت "كاوه" للتوقّف عن الصدور... وقد شارك في ما بعد بإصدار مجلّة جديدة اسمها "علم و هنر" [العلم والفنّ]، نشر فيها على الرغم من عمرها القصير نسيباً عدداً من قصصه القصيرة التي كان قد كتبها في مرحلة مبكرة، كما شارك في تحرير مجلّة طلابيّة تُسمّى: "فرنكستان" [أوروبا، أو بلاد الفرنجة].

توقّف جمال زاده بعد نجاح مجموعته القصصيّة الأولى، الصادرة في العام 1921 عن الإنتاج الأدبيّ لمُدّة عشرين سنة "أي طيلة حكم رضا شاه" لسببين: القمع الذي كان يتعرّض له الأدباء ولأنّ "كان يا ما كان" أثارت جدلاً واسعاً في إيران، ففي حين عدّها الشباب ذو الميول التقدّميّة عملاً عبقرياً، رأت فيها الدوائر الرجعيّة هرطقةً وهجوماً ضدّ الكبرياء القوميّة، وقد أفقدت الضجّة المعادية لكتابات جمال زاده الكاتّب حماسه، وظلّ لمُدّة في حالة عقليّة ونفسيّة لا تمكّنه من الكتابة<sup>68</sup>.

يقول في مذكراته: "لقد فكّرت في أنّ ما يدعو إلى الأسف أن تمرّ حياتي القصيرة كلّها مع القلم والورق وأن أكون راويّ مسرّات الآخرين وشارب أنخابهم"<sup>69</sup>.

القصة الأولى في مجموعة "كان يا ما كان" و"سُكّر هي الفارسيّة" تدور حول جدالٍ في أحد السجون الإيرانيّة، بين مواطنٍ عاديّ قادم من الريف دخل السجن من دون ذنبٍ اقترفه، وبين اثنين من مواطنيه أحدهما "آخوند"، أي عالم دين ذو تعليم دينيّ متعصب، والآخر مُستعربٌ عائدٌ حديثاً من أوروبا وكلاهما أثار حنق الرجل العاميّ الذي كان يبحث عن تفسير لذيها عن الأسباب التي أوصلته إلى السجن: عالم الدين بالعبارات العربيّة-الفارسيّة المنمّقة التي ينطق بها، والمتفرنس بالعبارات الأجنبيّة الغربية التي ينطقها، فيتألّم الرجل البسيط ويشعر بالضالّة والضياع، لأنّه لم يفهم تفسيراتهما، إنّها قصّة تعالج بذكاء المشكلة التي كانت سائدة في إيران -كما في الأقطار العربيّة- في بداية القرن العشرين بين الجيل الذي تفرّج ولم يعد قادراً على التكيّف مع الحياة في بلده وبين المتقيّين، الذين كانت أعدادهم تتزايد ومعرفتهم تتضاءل، فيسترون جهلهم باستخدام العبارات العربيّة النمطيّة الفصيحة...

66 . انظر بغية الراغبين، ج ض، ص 288، وسيرته الذاتيّة المنشورة في نشرة "دانشكده ادبيات" [كلية الآداب]، جامعة تبريز، 3-4-1954؛ ادبيات نوين ايران، يعقوب آزند، ص 60-61.

67 . السيرة الذاتيّة، ص 274.

68 . السيرة الذاتية، ص 26.

69 . م.ن، ص.ن.

أما قصة "دوستي خاله خرسه" [صدقة خالتي الدبة] فهي قصة مؤثرة حول رجل مرح طيب القلب يعمل نادلاً في مقهى، كان مسافراً مرةً فعثر في طريق كرمانشاه على أحد جنود القوزاق جريحاً فوق الثلوج، فأنقذه على الرغم من تحذير رفاق السفر له، ويعلم الجندي الجريح أنّ منقذه يحمل مبلغاً من المال، وبعد أن يتمثل للشفاء ويصل إلى الأمان، يحرّض مجموعةً من الروس السكارى على اعتقال النادل وإطلاق الرصاص عليه . وقصة "هذا القدر لهذا الشمندر" سخرية لاذعة من النظام الاستبداديّ وأسلوب الحياة في الدوائر الحاكمة والفوارق الطبقيّة أواخر حكم القاجاريين.....وفي حديث له مع صحافيّ إيرانيّ في العام 1938م بدا فخوراً بمجموعته "كان يا ما كان" كأساس لمدرسة جديدة في الأدب الفارسيّ وقال معترضاً على الميل –السائد لدى الكتاب لتقليد النماذج الغربيّة<sup>70</sup>.

عاد جمال زاده وواصل إنتاجه الأدبيّ في العام 1941م بعد عشرين عاماً من الصمت، ليثبت من جديد أنّه أحد أكثر المؤلفين خصوبةً في إيران المعاصرة، وأصدر أوّل ما أصدره في المرحلة الجديدة روايته "دار المجانين" (1942م)، يحاول المؤلف فيها أن ينتقد المجتمع، الذي يفضّل الرجال الأذكياء المرهفي الأحاسيس، التواجد في مستشفى للأمراض العقليّة عن العيش فيه...أما رواية جمال زاده التالية فهي "قلتشن ديوان" (1946) التي تتناول الصراع الأزليّ بين الخير والشر. إنّ "قلتشن ديوان" كما يراها النقاد<sup>71</sup> هي أعظم روايات جمال زاده، إذ تتأغمت في الرواية جوانب السخرية والفكاهة والنقد الاجتماعيّ والعواطف الإنسانيّة السامية والحبّ لبني البشر، والنغمة الحزينة في تصوير وفرة نصيب الشرير.

أما "صحراي محشر" [صحراء يوم الحشر] (1947)، فهي رواية خياليّة عن يوم القيامة مستوحاة بتصرّف عن "الرويا الصادقة"، التي كان والده وأحد أصدقائه قد كتبها قبل ذلك بخمسين عاماً، لكنّ رواية الأب كانت ذات هدف محدّد، إذ يرسم من خلالها صورةً "للأوقات العصيبة التي تنتظر الحكّام المستبدّين وأعداء البلاد حين يقفون أمام خالقهم، أما الابن فيحلّق خياله بادئ ذي بدء في دائرة السخرية والفكاهة ويصوّر أحوال الناس من مختلف الأنواع عندما يقفون في محضر الخالق وتوزن أعمالهم"، ويظهر بوضوح تأثر الكاتب بـ رسالة الغفران للمعريّ من ناحية، ومن ناحية أخرى بما جاء من نصائح إلى الحكّام والأمراء والمرائين في آثار جلال الدين الروميّ وسعدي وحافظ ونظامي الكنجوي.

أما رواية "راه آب نامه"<sup>72</sup> [ مجرى الماء] (1948) وهي رواية مختصرة ومترابطة، وقرابية الفهم ومركزة إلى ابعده الحدود، فإنّها تقف في مستوى أرفع من بقية رواياته من ناحية النقد الاجتماعيّ، فهي تتناول شخصيّات من مختلف الطبقات الاجتماعيّة وتتميّز بروح

<sup>70</sup> . انظر حسن گمشاد، النثر الفنّي في الأدب الفارسيّ، طهران، 1965، ص 165.

<sup>71</sup> . يعقوب آزند، ادبيات نوين ایران، ترجمة مقال ميلوش بوركي، ص 138.

<sup>72</sup> . يعقوب آزند، ادبيات نوين، ص 129.

الفكاهة وانسيابية الأسلوب، والمكان زقاق من أزقة طهران والشخصيات مجموعة الأشخاص يعيشون في بيوت الزقاق الستة..

كتب جمال زاده فضلاً عن رواياته أربع مجموعاتٍ من القصص القصيرة في الأعوام 1942 و1959 و1960م<sup>73</sup>. وقد نُقلت أعمال جمال زاده إلى الهندية والألمانية والفرنسية والروسية والدانماركية<sup>74</sup>.

إنّ جمال زاده الذي ينتمي إلى عائلة أفرأدها من علماء الدين المناضلين كان انتقاده لعلماء الدين والمؤسسات الدينية نقدَ الناصح المشفق الذي يعرف مواطن الخلل، من دون أن ينسى دور علماء الدين في تأييد الدستور والنضال من أجله (وقد استشهد أبوه في سبيل ذلك)، كما أنّ نقده للممارسات الدينية الخاطئة استمرّاراً لنقد الكبار في التراث الفارسي لهم ولا سيّما حافظ الشيرازي مع تغيير ظروف المكان والزمان، وليس كمنقذ صادق هدايت وأمثاله، الصادر عن حقدٍ أو كرهٍ أو تعصّب عرقيّ. أمّا وجهة نظره بالنسبة إلى الأمراض الاجتماعية في وطنه فيمكن أن تلخّص في الفقرة التالية المأخوذة من قصة "الملح المتعفن" حيث يناقش الفساد الخلقي، الناجم جزئياً عن الفقر المدقع والحرمان من ناحية، ومن ناحية أخرى عن انعدام الطمأنينة على الأرواح والأموال، طالما أنّ الناس يخافون الراعي كما يخافون الذئب، وليست لديهم أيّ ثقة بعدوهم، أو في أن يكونوا السادة الحقيقيين لحياتهم وأموالهم، فإنّ مكافحة الفساد تُشبه وزن الماء في الغربال أو جمع الهواء في سلال الصفصاف.

أخيراً علينا أن نذكر أهميّة الدور الذي قام به جمال زاده<sup>75</sup> في تجديد اللغة الأدبية في إيران، ووضع أساس نمطٍ لغويّ حديثٍ ومناسب، بعيداً من لغة رجال الدين الذين اعتادوا استخدام الألفاظ العربية الفصيحة في كتاباتهم، وعن المستغربين الذين بالغوا في استخدام المصطلحات الأجنبية... ويبقى جمال زاده واحداً من أعظم الكتاب الإيرانيين إلى اليوم بلغته وسخريته وروحه الصوفية.

### المرحلة الثانية : العلاقات بين إيران وجبل عامل

كان التأثير في هذه المرحلة من إيران باتجاه لبنان عامّة وجبل عامل خاصّة، ولا تزال نتائج هذا التأثير تتفاعل إيجابياً حتّى الآن، على الصّعد كافّة: السياسيّة والثقافية والفكرية، ونشير هنا إلى دور السيّد موسى الصدر ثمّ إلى دور الإمام الخميني والثورة الإسلامية في تشكيل النهضة الإسلامية في العالم عامّة وفي لبنان وجبل عامل خاصّة.

<sup>73</sup>. راجع يعقوب آژند، ادبيات نوين ايران، ص 61-112، 130-134؛ پنج شعله جاويد، تهران 1955.

<sup>74</sup>. راجع حسن گمشاده، ص 162-163.

<sup>75</sup>. راجع يعقوب آژند، ادبيات نوين ايران، ص 156-157.

فالسيد موسى الصدر والإمام الخميني ومنظرو الثورة الإسلامية في إيران بهشتي ومطهري وشريعتي ينتمون جميعاً إلى المدرسة الاجتهادية في الفكر الشيعي التي أسس لها في إيران علماء جبل عامل المهاجرون الذين كانوا استمراراً لمدرسة الشهيدين الأول والثاني ممثلين بالشيخ بهاء الدين العاملي وتلامذته وتلاميذهم من بعدهم.

إن التسامح المذهبي الذي عُرف به هذا التيار هو الذي أسس لهذا الانفتاح الفكري على المذاهب الأخرى لدى علماء الثورة، فنحن في دراستنا للشهيدين الأول والثاني ولتلاميذ الشهيد الثاني، ثم للشيخ البهائي قبل غلبة التيار الأخباري في إيران، رأينا حرصهم على محاوره المسلمين الآخرين من غير الشيعة من دون عقْدٍ ومن دون تشجّج أو مداراة، وجميعهم سافروا إلى الشام وإلى مصر للأخذ عن العلماء فيهما، والشهيد الثاني وتلامذته كانوا يدرسون الفقه في مدارس جبل عامل وبعلبك على المذاهب الخمسة<sup>76</sup>، والشيخ البهائي يسافر إلى دمشق وحلب ومصر والقسطنطينية ويحاور علماءها، ويكتب بعد عودته إلى إيران "الرسالة الاعتقادية" يعرف فيها الفكر الاثني عشري وخصائصه بطريقة موضوعية، مستقراً ما كان ميدان خلاف بين متكلمي الشيعة والسنة وفقهائهم، مبرئاً الاثني عشري من الاعتقادات الباطلة التي تؤمن بها الفرق الغالية<sup>77</sup>.

وكل ذلك دليل على انفتاح هؤلاء العلماء على المسلمين الآخرين وعدم توقعهم على ذاتهم داخل شرنقة المذهب، وهذا ما فعله السيد موسى الصدر حين جاء إلى لبنان وأنشأ علاقات ودّية بعلماء المسلمين والمسيحيين، وما فعله الإمام الخميني حين دعا إلى الوحدة الإسلامية للوقوف في وجه الاستكبار العالمي.

### السيد موسى الصدر والثورة الإسلامية الإيرانية<sup>78</sup>:

هو ابن السيد صالح شرف الدين، وُلد السيد موسى في 5 آذار سنة 1929م في مدينة قم حيث تلقى علومه الابتدائية والثانوية كما تلقى دراساته الدينية على عدد من أساتذة حوزتها، ثم تابع دراساته الجامعية في كلية الحقوق في جامعة طهران وحاز على الإجازة في الحقوق، وأتقن كجميع العلماء العربية والفارسية، وألم بالفرنسية والإنجليزية، وصار أستاذاً محاضراً في جامعة قم الدينية. كما انتقل إلى النجف الأشرف ودرس على كبار علمائها. قدّم لبنان للمرة الأولى في العام 1955م فتعرّف إلى أسرته في صور وحلّ ضيفاً على العلامة السيد

<sup>76</sup>. راجع حياة الشهيد الثاني، أعيان الشيعة، ج 7، ص 144.

<sup>77</sup>. راجع دلال عباس، بهاء الدين العاملي، ص 572-574.

<sup>78</sup>. راجع بغية الراغبين، ص 619-635.

عبد الحسين شرف الدين الذي تعرّف مواهبه ومزاياه، وبعد أن توفّي السيّد عبد الحسين كتب الصوريّون إليه في قم يدعونه ليكون مرجعهم، وهكذا قديم في أواخر العام 1959 إلى مدينة صور وأقام فيها.

إنّ أهمّ ما ميّز عمل السيّد موسى الصدر في صور وفي لبنان توسيعه نطاق الدعوة والعمل الدينيّ بالمحاضرات والندوات والاهتمام بشؤون المجتمع، لا سيّما في الجنوب وبعلبك والهزمل التي كانت تعاني الإهمال والتخلف والحرمان، منشأً علاقات وثيقة بمختلف فئات الشعب اللبنانيّ وطوائفه، منطلقاً من أنّ وظيفة الدين هي الاستقامة الأخلاقية، وأنّ هدف الأديان واحد، وداعياً إلى نبذ المشاعر العنصريّة وإلى تفاعل الحضارات الإنسانيّة وإلى مكافحة الآفات الاجتماعيّة والفساد والإلحاد... وشارك مع الجمعيات الخيريّة والثقافيّة في عشرات المشاريع الاجتماعيّة والانمائيّة ومؤسسات الصدر القائمة اليوم في لبنان تشهد على جهوده وعبقريّته.

إنّ السيّد موسى الصدر بمواقفه وفتاواه الاجتهاديّة، هو استمرار لتلك المدرسة الاجتهاديّة التي أسّس لها علماء جبل عامل في إيران منذ العصر الصفويّ، ونموذج للعلماء ذوي الثقافتين، المنتميين إلى التشييع بمفاهيمه الإنسانيّة الرحبة غير المتوقّع في بيئة محدودة محصورة في بقعة جغرافية بعينها، وإلى هذا الأمر يشير الشيخ هاشمي رفسنجاني في مذكراته<sup>79</sup> في أثناء حديثه عن سفره إلى خارج إيران في العام 1974م، عن لقائه السيّد موسى الصدر في لبنان (وكان قرأ عليه من قبل في حوزة قم)، فأشاد بالمؤسسات التي أنشأها السيّد موسى في لبنان وتكلّم على علاقاته بالطلبة والمقاومين الإيرانيين الموجودين في لبنان، وعلى مواقفه المعتدلة ودوره المهمّ شيعياً ووطنياً، ودعمه للشباب الإيرانيين الثوريين الموجودين في لبنان... هؤلاء الشباب الذين تلقّوا التدريبات العسكريّة في صفوف المقاومين الفلسطينيّين، وكانت لهم أدوار فاعلة في ما بعد في صفوف الثورة الإسلاميّة: كالشهيد محمّد منتظري، والسيّد أحمد الخميني والسيّد صادق الطباطبائيّ وعبّاس كديفر ومحمّد بيراق، ومثالهم الأبرز مصطفى شمران الذي تولّى لاحقاً رئاسة مجلس الدفاع الأعلى في الجمهوريّة الإسلاميّة، إلى أن استشهد في حادث مأساويّ إثر تحطّم طائرته على الجبهة العراقيّة في العام 1981م.

وجاء تأييد الشيعة اللبنانيين وأهل جبل عامل منهم خاصّة للثورة الإسلاميّة الإيرانيّة أمراً طبيعياً ومتوقّعا، فهذه الثورة اتخذت منذ اللحظة الأولى لانطلاقها بُعدين أساسيين: بُعداً داخليّاً اجتماعيّا يتصدّى للظلم الاجتماعيّ والسياسيّ للنظام البهلويّ، وبُعداً خارجيّا يتمثّل في التأكيد

<sup>79</sup> . هاشمي رفسنجاني، دوران مبارزه، تهران، دفتر نشر معارف انقلاب 1376 هـ.ش [1997م]، ج 1، ص 275-276. صدرت ترجمة هذا الكتاب تحت عنوان [هاشمي رفسنجاني- حياتي] عن دار الساقي- بيروت ٢٠٠٢، ترجمة كاتبة البحث.

العقيدّي والشرعيّ المستمرّ على وجوب تحرير القدس وإزالة العدوان الصهيونيّ، وهذان البُعدان طرحتهما الثورة من دون أن تفكّك بينهما كوجهين لعملة واحدة.

ومن المعروف أنّ أهلَ جبل عامل كانوا على اتصال مباشر مع هذين البُعدين، وكانوا في خضمّهما معاً، فمن جهة كانوا على تماس مباشر مع القضية الفلسطينية والصراع العربيّ-الإسرائيليّ، يدفعون ثمنه من حياتهم وحياة أبنائهم ومن عرقهم وكدهم وكراماتهم ودمهم وأمنهم واستقرارهم. ومن جهة أخرى كانوا في خضمّ المعركة الاجتماعيّة-السياسيّة مع النظام اللبناني

أمّا فكرياً فإنّ هذه الصحوة الإسلاميّة في العالم بأسره وفي لبنان على نحوٍ خاصّ هي نتيجة من نتائج الثورة الإسلاميّة التي حرّرت النساء والرجال من الظلم ومن الخرافة والتحرّيف والتغرّب<sup>80</sup>.

## المصادر والمراجع

- 1- آثار وأشعار الشيخ البهائي، تقديم سعيد نفيسي، تهران 1361/1982م.
- 2- الإسلام وإيران، مرتضى مطهرّي، تعريب محمّد هادي اليوسفي، دار التعارف للمطبوعات، 1400هـ.
- 3- الأعمال الرياضيّة، بهاء الدين العامليّ، ط.أولى، معهد التراث العربيّ حلب وط.دار المشرق 1981م.
- 4- أعيان الشيعة، السيّد محسن الأمين، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف، لا تا.
- 5- أمل الآمل، محمّد بن الحسن الحرّ العامليّ (جزآن)، تحقيق أحمد الحسينيّ، مكتبة الأندلس بغداد، لا تا.
- 6- بهاء الدين العامليّ أديباً وفقهياً وعالمًا، دلال عبّاس، بيروت، دار الحوار، ط.أولى 1995م.
- 7- بغية الراغبين، السيّد عبد الحسين شرف الدين، الدار الإسلاميّة، بيروت، ج 1، ط. 1991م.
- 8- تكملة أمل الآمل، السيّد حسن الصدر، ترجمة أحمد الحسينيّ، دار الأضواء، بيروت، 1986م.
- 9- الحدائق النديّة في شرح فوائد الصمديّة، ابن معصوم، طهران، 1474هـ.
- 10- الحكومة الإسلاميّة، الإمام الخمينيّ، ط. القاهرة، 1979م.
- 11- روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات، الخوانساريّ، (8 أجزاء)، مكتبة إسماعيليان، إيران 1392هـ.

<sup>80</sup>. دلال عبّاس، "المرأة في إيران"، مجلة شؤون الأوسط، عدد خاصّ عن المجتمع في إيران، بيروت، 2000م.



- 12- رياض العلماء وحياض الفضلاء، الإصفهاني، تحقيق أحمد الحسيني، قم إيران لا تا.
- 13- سلافة العصر في محاسن الشعراء بكلّ مصر، ابن معصوم، المكتبة المرتضوية لإحياء التراث، طهران.
- 14- الفكر الشيعي والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري، محمّد كامل الشيبلي، ط. أولى، مكتبة النهضة، بغداد 1966م.
- 15- فلاسفة الشيعة، الشيخ عبد الله نعمة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت لا تا.
- 16- الكنى والألقاب، عباس القمي، المطبعة الحيدرية، محمّد صادق الكتبي، النجف، 1965م، 1376م.
- 17- الباب في شرح خلاصة الحساب، محمّد جواد ذهني تهراني، 1405هـ، 1985م، قم.
- 18- لؤلؤة النجدين، مطبعة السمان، النجف الأشرف، 1386هـ/1966م.
- 19- منية المرید في آداب المفيد والمستفيد، الشهيد الثاني، تحقيق عبد الأمير شمس الدين، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1981.
- 20- النثر الفني في الأدب الفارسي، حسن گمشاد، ترجمة إبراهيم الدسوقي شتا، المصرية العامة للكتاب، 1992م.

### المراجع الفارسية

- 1- آثار ملي اصفهان، ابو القاسم رفيعي مهر آبادي، تهران 1353هـ.ش [1974م].
- 2- ادبيات نوين ايران، يعقوب آژند، انتشارات اميركبير، تهران، 1363هـ.ش [1974م].
- 3- پنج شعله جاويد، تهران، 1955م.
- 4- تاريخ ادبيات ايران، إدوارد براون، ترجمة رشيد ياسمي، چاپ دوم، تهران، 1329هـ.ش [1950م].
- 5- تاريخ فرهنگ ايران از آغاز تا زمان حاضر، عيسى صديق، چاپ دوم، تهران، بهمن 1338هـ.ش [1959م].
- 6- تاريخ شاه اسماعيل، تهران، 1342هـ.ش [1963م].
- 7- تشكيل شاهنشاهی صفوی، نظام الدين مجير شيباني، انتشارات دانشگاه تهران، 1345هـ.ش [1966م].
- 8- دين و مذهب در عصر صفوی، مريم مير احمدی، چاپ اول، تهران 1336هـ.ش [1984م].
- 9- زندگانی شاه عباس اول، نصر الله فلسفی، جلد اول، چاپ اول، تهران 1334هـ.ش [1955م].

- 10- زندگانی شاه عباس اول، نصر الله فلسفی، جلد دوم، چاپ چهارم، تهران 1337 هـ.ش [1968م].
- 11- زندگانی شاه عباس اول، نصر الله فلسفی، جلد سوم، چاپ دوم، تهران 1345 هـ.ش [1966م].
- 12- زندگانی شاه عباس اول، نصر الله فلسفی، جلد چهارم، چاپ دوم، تهران 1346 هـ.ش [1967م].
- 13- زندگانی شاه عباس اول، نصر الله فلسفی، جلد پنجم، چاپ اول، تهران 1352 هـ.ش [1973م].
- 14- عالم آرای عباسی، اسکندر بك ترکمان مُنشی، تهران، 1334 هـ.ش [1955م].
- 15- فرهنگ فارسی، محمد معین، لغت نامه، چاپ ششم، 1363 هـ.ش [1984م].
- 16- قصه نویسی، رضا براهنی، چاپ دوم، تهران، انتشارات اشرفی، 1348 هـ.ش [1969م].
- 17- محمد علی جمالزاده، یکی بود یکی نبود، ط.4، تهران.
- 18- محمد علی جمالزاده، قلتش دیوان، تهران.
- 19- محمد علی جمالزاده، صحرای محشر، تهران.
- 20- محمد علی جمالزاده، راه آب نامه، تهران.
- 21- محمد علی جمالزاده، هزار پیشه، تهران، 1326 هـ.ش [1947م].
- 22- هاشمی رفسنجانی، دوران مبارزه، تهران، 1376 هـ.س [1997م].

### المراجع الأجنبية

- 1) Boreck, Milos, "Persian Prose since 1946", in Middle East Journal, VII, No. 2, (Spring 1953).
- 2) Hassan Gamshâd, Modern Persian Prose Literature, Cambridge, at the University Press, 1966.